عشر قصص قصيرة
عادل الأسطة

أنجزت هذه القصص العشرة في كانون أول من العام ٢٠٠٣ وكانون ثان من العام ٢٠٠٤.

لماذا كنت يوسف؟
من قال إني كنت يوسف؟

يسأل، الآن، بعد سنوات مما حدث، يسأل نفسه: لماذا كنت يوسف؟

كان ذلك صباح يوم من أيام كانون الأول. كان يذرع شوارع المدينة باتجاه مكتبة الجامعة، الجامعة التي غادر طلابها إلى مدنهم التي جاؤوا منها، لكي يحتفلوا بعيد الميلاد، قبل أن تبدأ أمريكا احتفالها بتدمير الجيش العراقي، الاحتفال الذي سيبدأ في السادس عشر من كانون الثاني.

ثمة بردٌ قارص وأجواء ضبابية، والناس يسيرون في الشوارع ويدخلون إلى المحلات الزاهية، يعدون للمناسبة. يشترون ما تعرضه المحلات التجارية من ملابس أنيقة تزداد أناقة حين يرتديها البشر الذين يبدون بصحة جيدة. ثمة وجوه. وجوه نضرة، وأجساد ممتلئة. ثمة وسامة لافتة. وكان هو يسير. كان يسير باتجاه مكتبة الجامعة.

يصعد الدرج، يصعده ولا يرى أحداً. المكان هادئ جداً، وكأن لا أحد في المبنى، ولولا أنه رأى الناس في الشوارع لقال إنه يوم أحد، ولولا أن باب المكتبة مفتوح لأكد ما كان سيقوله.

في الطابق الأول، قرب آلة التصوير رآها. ربما تبدو في الرابعة والأربعين. ربما تبدو هكذا أستاذة الاستشراق هذه التي تسير وزوجها غالباً، هذه التي دعاها وزوجها غير مرة إلى منزله فلبت الدعوة مع زوجها، هذه التي دعته غير مرة إلى منزلها فلبى الدعوة غير مرة. كانت تحضر له، حين تزوره، القهوة أو زجاجة النبيذ، وتعلم هذه العادة منها، وأخذ يهدي من يزوره القهوة والنبيذ. وكان بينهما ثمة احترام. ثمة ود ليس أكثر. تسأله، حين تقرأ نصاً عربياً فيه مفردات أوروبية مكتوبة بحروف عربية، تسأله عن هذه المفردات التي تبدو لها غريبة، دون أن تفطن أنها مفردات لغة أجنبية، وتسأله عن مفردات عربية تسللت إلى لغة النص الفصيحة من اللهجة العامية، ويسألها عن حياتها وعن عمل زوجها، وعن الفارق في الحياة بين الألمانيتين، فقد تركت ألمانيا الشرقية لتعيش في ألمانيا الغربية. أخذت تذم الحياة هناك لتمدح الحياة هنا، رغم بعض الصعوبات في الوظيفة، ورغم نظرة التعالي التي لاحظتها على سلوك الألمان الغربيين تجاهها، هؤلاء الذين طلبوا منها أن تكتب دراسة وأن تلقيها أمام أساتذة الجامعة ليعترفوا بشهادة الأستذة التي تحملها.

في الطابق الأول، قرب آلة التصوير رآها. تسأله عن أطروحة الدكتوراة التي يعدها. تسأله عن رأي المشرف فيما يكتب، وتعده، أنها ستكون مشرفة ثانية، تعده أن تساعده وتطلب

منه ألا يكترث للأمر كثيراً. تعرف أنه يبدي رأيه في موضوعات أدبية، تلحظ أنه على اطلاع لا بأس به، تكتشف أن لغته لا بأس بها، تدعوه ليقرأ لها بعض النصوص، تطلب منه أن يحضر بعض فصول رسالته، وحين يسألها عن الموعد الذي يمكن أن يزورها فيه، تحدد له موعداً عاجلاً، موعداً لم يكن يخطر له على بال. تقول له: اليوم، بعد ساعة. وكان يوم جمعة.

يتذكر، الآن، وهو يكتب ما حدث، يتذكر يوم الجمعة ذاك. الغيوم مكفهرة، وأمطار كانون تتساقط بغزارة، والناس يسيرون في الشوارع يحملون أشياءهم، والمكتبة شبه خالية إلا من بقايا طلاب. يغادر المكتبة التي غادرتها. يذهب إلى السوق ويشتري أشياءه. يشتري أغراض إجازة عيد الميلاد. يذهب إلى شقته في منزل الطلبة، ومنها ينطلق إلى منزلها. ثمة شارع غير رئيس. يسير وحيداً في المطر الذي يتساقط. يبحلق في جانبي الشارع، في النهر الذي ارتفع منسوب مياهه، في الفراغ حيث لا أحد سواه، حيث ليس هناك ضجيج إلا ما ندر. سيارة عابرة مثل قطة عابرة مثل رجل عابر.

ويصل إلى البناية. يصعد الدرج المؤدي إلى شقتها،١. يرن الجرس. تفتح الباب. هي وحدها، وزوجها في مكان عمله، في المكتبة هناك، في المدينة المجاورة. يعرف هذا حين يسألها عن زوجها، بعد أن دخل إلى الشقة .. يجلسان معاً. تذهب إلى المطبخ لتحضر الطعام.

وتصب النبيذ في كأسين. تحضر البيتزا. تضع قطعة منها في صحنه وقطعة في صحنها. تجلس قربه. ترفع في كأسها لتشرب في صحة عيد الميلاد. تقطع البيتزا بالسكين والشوكة، تتناول قطعة منها، وتطلب منه أن يأكل، فالنبيذ قد يضر المعدة الفارغة. تنتهي من مضغ لقمتها، ولا تنتظر أن ينتهيا من الطعام. تمد يدها إلى ...

سيغادرها. سيغادر الشقة على الرغم من أنها أخبرته أن زوجها يعاني من ضعف جنسي. سيعتذر لها لسلوكه، ولا تغلق الأبواب. تتركه يمشي. لا تقد قميصه لا من قبل ولا من دبر، وسيبدو مثل يوسف، رغم أنه لم يكن دائماً هكذا. فهو أحياناً يقول: لم أكن يوسف أبداً. أحياناً كنت يوسف.

يتذكر، فيما بعد، بعد أشهر. يتذكر ما حدث. يراها وتراه. تسأله عن الرسالة التي يعدها. يجيبها: لا أدري. تسأله إن كان ما زال يريد أن تكون ممتحنه الثاني. يجيبها: لا، ويخبرها أنه اتفق مع مشرف آخر، في مدينة أخرى. وتطلب منه ألا يخبر أحداً بما جرى بينهما. ويعدها.

يتساءل فيما بعد إن كان زوجها يعاني حقاً من ضعف جنسي. يتساءل إن كانت شبقة. يعرف منها أنها انفصلت عن زوجها، يعرف أنها تعيش وحيدة في شقتها. تخبره هي بهذا. ويعرف من غيرها أنها امرأة شبقة.

وهو ينظر إليها. تقص شعرها. تهتم بملابسها. وتحاول أن تبدو أنيقة. جسد حنطي فوار. وجه تملؤه الأصباغ كأنما هي على استعداد دائم للنزال، إذا كان هناك من هو مستعد للنزال. ومع أنه وعدها ألا يفشي سرها، تلك التي تركت عزيزها، إلاّ أنها كانت دائماً تلح بالسؤال: هل أخبرت أحداً بما حدث؟ ولأنه لم يخبر أحداً وأدركت هذا، فلم تتردد في أن تشوهه دفاعاً عن نفسها. كأنما تقول: خير وسلة للدفاع هي الهجوم. وهو، هو بعد سنوات، يتساءل: لماذا كنت يوسف؟ لماذا كنت يوسف؟

لماذا كنت يوسف؟

بعد سنوات يتذكرها. يتذكر زيارتها ويسأله نفسه: لماذا كنت يوسف؟

تتصل به من (بوخوم). تحدد موعداً لزيارته. تخبره أنها تريد مقابلة بعض الأساتذة. يرحب بها، فقد كان بينهما ثمة لقاء. كانت زارته قبل عام ونيف من موعد الزيارة المقترحة. باتت في شقته الصغيرة أياماً أكرم وفادتها. تعرفت إلى زوجته وأطفاله ساروا معاً في شوارع المدينة وأقلتهم في سيارتها صوب الغابة ومشوا في الغابة معاً.

تتصل به من جديد، بعد الزيارة الأولى وتحدد موعداً، وهي تعلم أنه الآن وحيد، تعلم أن زوجته غادرته مع أطفالها. وكان منهكاً. ثمة مشاكل كثيرة. ثمة إشاعات روج الآخرون لها. وهو لم يكن يدري عنها. هل أرادوا أن يبرروا ما سيقدمون عليه؟ هل أرادوا قتله حين أشاعوا أنه فكر بالانتحار؟

تأتي في الموعد المحدد. يستقبلها في شقته. رجل وامرأة يتقاربان عمراً وحجماً ولوناً، رغم أنه من الشرق الأوسط، ورغم أنها ألمانية. يتحدثان عن الدراسة. تخبره عن أطروحة الدكتوراه التي تعدها. تعرض عليه بعض فصول مما كتبت. تقول له إنّ لها موعداً مع أستاذة ما. تعلمه إنها شديدة وتريد رأيه لأنه تلميذها. وتسأله عن رسالته. تسأله متى سينتهي من كتابتها. وتغادر إلى الجامعة.

مساء تعود. تعود بعد غياب ساعات طويلة. تقترح عليه أن يخرجا معاً إلى مطعم ما، إلى بار ما. تقول له: أنا أدعوك إلى العشاء. هذا يعني في العرف الألماني أنها ستدفع ثمن الطعام والشراب. يرد عليها: أنت ضيفتي، ويسألها إن كانت ما زالت على علاقة بزوجها في الشام. زوجها الفلسطيني الذي يكتب القصة والرواية، زوجها الذي وصف علاقته بها في إحدى رواياته. زوجها الذي كان متزوجاً من امرأة فلسطينية وله منها أبناء.

كانت أخبرته أنها تعرف أن زوجها الفلسطيني متزوج، وأخبرته أنه يقيم معها في شقتها، ومنه عرفت، من زوجها، أنه هو الذي كتب أطروحة الماجستير في الموضوع الذي كتبت فيه، وأنه، زوجها، هو الذي أعطاها نسخة من رسالة الماجستير التي أعدها. ويسألها السؤال: أما زلت على علاقة به؟ وتجيبه: نعم. وهو لا يدري. غير أن بقايا رجل شرقي ما زالت تسكن في وعيه. يحترم صديقه ولا يريد أن يقيم علاقة جنسية مع زوجة صديقه. بقايا رجل شرقي ما زالت تسكن في عقله.

يذهبان معاً إلى مطعم ما. ينفقان ساعات طويلة يحتسيان البيرة المدخنة التي تختص المدينة بتقديمها. كان عرف هذا من ألماني مجرب دعاه ذات يوم إلى هذا المطعم، المطعم الذي أخذ يدعو زواره إليه. يتحدثان في أمور كثيرة. يتحدثان عن حياتها في الشام. عن حياته هنا في المدينة. عن اختلافه مع أصدقائه. عن علاقته بالمشرفات. بأستاذته التي أحضرته إلى ألمانيا. عن زوج أستاذته. تخبره أنهما انفصلا عن بعضهما بسببه. تقول له: إنها ما زالت تكن له بعض الود وتود لو تعود العلاقة بينهما ودية، فهي الأستاذة لم تكن تعرف عن زوجها أنه مرتبط بجهاز استخبارات. وهي، هي القادمة من (بوخوم) تستدرجه لتعرف آراءه، لتعرف إن كان ما ينسب إليه يصدر عنه.

يغادران المقهى. يسيران معاً. يذرعان الشوارع في ليل مطير، ليل شديد البرودة، ليل لا يمنع الناس من الخروج من منازلهم. يتحدثان بهدوء. تقص عليه أخبارها. يقص عليها أخباره، وحين يقتربان من المنزل تسأله: أين سأبيت؟ يتذكر أنها امرأة متزوجة، يتذكر زوجها في الشام، زوجها المنضم إلى فصيل فلسطيني. في البداية يقول مازحاً: ننام معاً، وينتظر رد فعلها. لا تعقب. لا يؤكد المقولة الشائعة: الصمت يعني الموافقة، المقولة التي تصدر عن ثقافته هو، ولا يعرف إن كان الصمت، في ثقافتها، يعني الموافقة. يقتربان من المنزل أكثر. لا تمد يدها إلى يده. لا يمد يده إلى يدها. لعلها لا تريد. ولعله، هو المنهك منذ أسابيع، لا يملك رغبة في مضاجعة ما. ثمة جسد بدأ، في الأشهر الأخيرة، يهزل. وثمة مشاكل عديدة. يقول لها: تنامي وحيدة في سريري، وأنام أنا في الصالون، فثمة فرشة إضافية. يسيران معاً، وحين يقتربان من الشقة، تستأذنه في أن تذهب إلى سيارتها لتحضر أشياءها، ويتركها تذهب. تأتي بعد دقائق، تأتي وقد أحضرت ملابسها. تضع الحقيبة في الغرفة، ويجلسان في الصالة. يواصلان الحديث عن الدراسة، تسأله عن مصادره ومراجعه. يشربان القهوة في تلك الساعة المتأخرة من الليل. ولا يدري لماذا لم يمد يده إلى رقبتها، كما فعل مع أندريا التي سرعان ما خلعت ملابسها. واصل احترام صديقه، بل إنه لم ينتظر أن تقوم هي بلمسة. لعلها، وهي تقرأ معه بعض صفحات من رسالته، لعلها تعرف ما فعله مع أندريا، لعلها أرادت أن يبادر هو. ولم تكن مثل فتيات أخريات بادرن. مثل بربارة التي حين حدثها عن الدراسة قالت له: شبعت دراسة.

وفي ساعة متأخرة قامت إلى غرفتها، أخذت منشفتها وقميص نومها، وذهبت إلى الحمام. غسلت جسدها وخرجت، ولم يلامسها. كان يسأل نفسه: هل أرادت أن تعرف إن كنا سننام معاً على سرير واحد حين سألت أين سننام، ولهذا لم تحضر أغراضها؟ أم أنها أرادت أن تتركها في الحافلة، حتى إذا ما عرفت أننا سننام معاً، إن أصررت، ستغادر إلى فندق؟

وتخرج من الحمام. جسد فوّار، وهو متعب / وهو يعرف أنها، كما قالت له، ما زالت على علاقة بصديق له، علاقة زواج. وثمة بقايا تفكير شرقي. وثمة جسد ممتلئ رجراج، ثمة خلفية كبيرة، وذهبا كل إلى سريره.

يتذكرها فيما بعد. يتذكرها مراراً ويسأل نفسه: لماذا كنت يوسف؟ لماذا كنت يوسف؟

لماذا كنت يوسف؟
من قال إني كنت يوسف؟

يسأل نفسه مرات عديدة، يسأل نفسه: لماذا كنت يوسف؟ غير أنه يدرك أنه لم يكن دائماً يوسف، وحين يصغي إلى شخص ما يقرأ أمامه قصة يوسف، أو يحدثه عنها يكون جوابه: من قال إني كنت يوسف؟ من قال إني كنت يوسف؟ ويتذكرهن تلك اللاتي كن مثل زليخة، اللاتي راودهن عن أنفسهن وراودنه عن نفسه، دون أن يقددن قميصه، ودون أن يقد قمصانهن. كن ينزعن ثيابهن وينزع هو ثيابه، ولم يكن، غالباً، ثمة عزيز، ولم يكن هو يوسف. ولكنه يعرف أنه كان أحياناً يتصرف مثل تصرف يوسف، وكان، فيما بعد، لأسباب عديدة، يندم لأنه سلك سلوك يوسف.

ستقله امرأة في سيارتها . ستعرفه بنفسها وهو جالس إلى جانبها، وستمدح حديثه في المحاضرة، ثم تعرفه بنفسها. امرأة في الخمسين، من عائلة إقطاعية، زمن الإقطاع، من عائلة برجوازية، فيما بعد، وهي امرأة متزوجة أيضاً من ثري. لها شابات كبار ولها زوج طاعن في السن سيتعرف إليه فيما بعد، وفيما بعد أيضاً سيتعرف إلى ابنتها الشابة السمراء الممتلئة الحاصلة على شهادة عليا ما. وتطلب منه أن يعلمها عن المكان الذي يرغب في الذهاب إليه لتوصله. وفي وسط المدينة يفترقان. لم ينظر إليها على أنها زليخة، ولم ير نفسه يوسفا. ثمة علاقة عابرة، وإن تذكر، وهو جالس إلى جانبها، أستاذه الاستشراق التي حاولت إغواءه. يذرع شوارع المدينة، ويغادر إلى منزله، ولا يعود يلتقي بها إلا بعد فترة. تعرفه بابنتها التي عرفها قبل فترة.

يذكر ابنتها جيدا. يذكرها جيدا. ربما هي في الخامسة والعشرين. فتاة سمراء اللون ممتلئة على قدر من الجاذبية، ليست بالقصيرة جداً، وليست بالطويلة أيضاً. وكلما رآى أحدهما الآخر أخذ يمرحبه. تمرحبه فيمرحبها. تمر أحياناً من أمام مكتبه في المؤسسة، ويراها حين يذهب إلى مكان عملها، يراها غالباً بصحبة فتاة ما تقاربها في عمرها. ولم يكن يفكر بالارتباط بأية فتاة، ولكنها أخذت تميل إليه. لاحظ هذا، ولاحظت هذا صديقتها. في قاعة المؤتمرات كان يشرب القهوة، ولما هم بالدخول إلى المدرج جاءت إليه تبتسم. أعلمته أن شرب القهوة داخل القاعة، قاعة المدرج، ممنوع. هل كانت ثمة فرصة لأن تحادثه؟ صديقتها تعرف هذا، لأنها تعرف أنها تسير، غالباً، باتجاهه.

وسيراها مراراً. سيراها تسير في الشارع وسط المدينة، سيراها في مكان عملها، سيراها في الاحتفالات برفقة عمها الذي لم يكن على علاقة ودية معه، سيراها في النادي مع والدها. سيتبادلان التحيات، سيتحدثان حديثاً عابراً، وسيبدو غير مكترث للأمر. سيسأل نفسه: هل تمثل دوراً؟ سيتذكر امرأة عرفها هناك، هناك في ألمانيا. امرأة سمراء البشرة زارته وأقام معها علاقة عابرة، علاقة لا تمّحى من الذاكرة، علاقة غريبة بين رجل شرقي وامرأة ألمانية، علاقة نادرة بين رجل وامرأة، وكان عرف غيرها من الفتيات، لم يحدث معهن ما حدث معها. ثمة فحولة غير عادية. ويسأل نفسه: هل تمثل دوراً أم أنها عرفت بحكايته مع تلك المرأة، وتحن إلى فحولة ما؟

وفيما بعد، فيما بعد، يسأل نفسه مراراً: لماذا كنت يوسف؟ لماذا كنت يوسف؟

ولم يعد يراها. ربما تزوجت. ربما سافرت إلى أوروبا لتحيا هناك الحياة التي ترغب في أن تحياها، وكان يصغي إلى أقوال كثيرة تقولها. كان يدرك أنها أقوال غير صحيحة. كان يتبعني. كانت تقول. وتواصل أقوالها، وهو يكتب على مفكرته اسم صديقتها حتى يسألها الآخرون عن الحقيقة، وكانت صديقتها تقول ما جرى. وهو يسأل نفسه مراراً: لماذا كنت يوسف؟ لماذا كنت يوسف؟ وهو يدرك أنه لم يكن دائماً يوسف، غير أنه أحياناً كان مثل يوسف، وحين يتذكر هذا يتساءل بمرارة: لماذا كنت يوسف؟ لماذا كنت يوسف؟

خيال شرقي ... ربما !!!

ليلة الثالث والعشرين من أيلول ٢٠٠٣. تذهب إلى النوم مبكراً. تمل من سماع نشرات الأخبار، فالصور هي الصور، والأخبار هي الأخبار نفسها. والوضع يكاد يتفجر. وتسأل نفسك: هل ستعود الانتفاضة قوية إثر قرار الحكومة الإسرائيلية بإبعاد أبي عمار؟

تحاول النوم. تغفو، ولا تكون أحلامك سعيدة. بم يحلم الفلسطينيون ! بم يحلم الإسرائيليون؟ سؤال أثارَهُ كاتب إسرائيلي يساري في الانتفاضة الأولى. وفي الثانية فجراً تسمع أصوات رصاص. رصاصة واحدة كل دقيقة. هل أنت في حلم؟ هل تحلم؟ وتذهب بك المخيلة بعيداً. هل يخرجون الناس من بيوتهم ويطلقون عليهم الرصاص واحداً واحداً؟ هل هي صابرا وشاتيلا جديدة؟ ونحن الآن، في أيلول؟ وإن لم يكن اليهود، في صابرا وشاتيلا، قتلوا غير اليهود، فمن الذي قتل هؤلاء في اللد وقبية ودير ياسين؟

خيال شرقي .. خيال .. ربما.

****

تعود من عمان، بعد غياب أسبوعين، عبر الجسر. وقبل أن تفكر في استقلال الحافلة حتى تصل إلى استراحة أريحا يبادرك صديق قديم بالسؤال إن كنت توافق على أن تدفع مائة وخمسة وعشرين شيقلاً، تستقل معهم السيارة الفارهة الحديثة ذات الركاب السبعة التي ستواصل السير حتى حاجز حوارة، فتوافق. ولأن السيارة الإسرائيلية، مع أن سائقها عربي، تسير الطريق الأقصر، وتعبر شارع المستوطنات، وفي الطريق يكون هناك حاجزٌ واحد فقط. يسأل الجندي الركاب عن هوياتهم، ويفتش حقائبهم، بعد أن هبطوا من السيارة ووقفوا إلى جانبها. وعلى بعد خمسة أمتار فقط يقف جندي يشهر سلاحه، وإصبعه على الزناد. تنظر إليه، وتتابع حركة يده، فيما ينظر إلى زميله وإلى الركاب يتابعهم واحداً واحداً. وتسأل نفسك: من سيكون الضحية لو تحرك إصبع يده لا إرادياً؟ ولا تتذكر (غولدشتاين)، علماً بأنه قد يكون (غولدشتاين) آخر.

خيال شرقي .. خيال .. ربما.

****

يرفع الإسرائيليون، عن المدينة، حظر التجوال، لمدة ست ساعات. وترغب في أن تغادر إلى المدينة. تسأل السائقين إن كان ثمة جنود في وسط المدينة. ويجيبك كل سائق بما رأى أو سمع. وتؤثر البقاء في المنزل، فلا حاجة ملحة للذهاب إلى المدينة. تجلس قرب دكان أخيك. تشرب القهوة، وتخوض فيما فيه الناس يخوضون. يأتي قريبك. يقترح عليك أن تذهبا

إلى مبنى الجامعة، فتذهب يدفعك الفضول لرؤية ما يجري في المدينة. وتعودان معا. هو يقود السيارة، وأنت تجلس إلى جانبه. تعودان الطريق نفسها، فالدبابات في وسط المدينة والطريق الذي سلكتماه لا يقترب كثيراً منها. وفجأة تهرب السيارات وتجدان سيارتكما أمام الدبابة. وفجأة يبدأ الأطفال يقذفون الحجارة من جهات عديدة. يرتبك قريبك/ وتقترح عليه أن يدخل في طريق جانبي، ويفعل. وكان يمكن أن تكونا الضحية القادمة، لولا أن ألهم الله الجنود الصبر والسلوان وعدم الرد على الحجارة بالرصاص.

خيال شرقي .. خيال .. ربما.

****

تتكرر الحالة. تستقل الحافلة التي عادة ما تسير في شارع عمان. تطلب المرأتان من السائق أن يوصلهما إلى مخيم بلاطة، فلا يمانع كما يمانع أغلب السواقين. يقف السائق أمام الجامع حتى تهبط المرأتان، وما كادتا تهبطان، وما إن قرر السائق مواصلة السير، حتى كانت الدبابة تواجهه وهي تسير في الاتجاه المعاكس. يرتبك السائق، وهو يرى الناس يهربون. ويكرر راكب: يا هارب من قضاي، مالك رب سواي. وهو يدرك أنه قد يكون الضحية القادمة، ففي هذا الوطن لا أمان لأحد.

وهذا أيضاً خيال شرقي ،، هذا خيال شرقي ليس أكثر.

يكتب روايتها ... !!

بعد سنوات طويلة يلتقيان

لم يكن بينهما من علاقة غير القرابة. أخذت الصداقة بينهما تتوطد شيئاً فشيئا، وغدا لها الصديق الذي تثق به. غدا أخا آخر، أخا صديقا. وقصت عليه ما لم تجرؤ على قصه على إخوتها. ولم يكن يرى في سلوكها ما يعيب. فتاة تمارس حقها في الحياة. فتاة في العشرين. ناعمة. رقيقة. على قدر لا بأس به من الجمال.

بعد سنوات طويلة يلتقيان.

كانت أيامه صعبة وقاسية ومريرة. لم يكن يعرف عنها إلا أقل القليل. يعرف أخباراً عابرة. يعرف أنها سعيدة مع زوجها الذي ارتضاه أهلها زوجاً لها. (......) يعرف أنها خلفت صبايا، وحين رآهن شابات رأى شبابها فيهن. رأى وروداً تتفتح.

قالت لهن: هو ذا قريبي الذي حدثتكن عنه. قلت لهن، قالت تخاطبه، إنك أنت الذي كنت تجلب لي الكتب التي أحتاج إليها من مكتبة الجامعة. وقلت لهن، قالت أيضاً تخاطبه، كان أحد إخوتي. وصمتت (......)، ولم يعقب على كلامها.

تناول الشراب الذي قدمته ابنتها. شراب المانجا واحتساه دفعة واحدة. كان يلعب لعبة الكلمات. ولكنه لم يشرب المانجا على دفعتين. لم يقسم الكاس ليجعله نصفاً فارغاً ونصفاً ممتلئاً.

لم يقرأ الكلمة مقطعين الأول بالإنجليزية (Man) والثاني بالعربية (جاء). لم يتذكر (بول دي مان) والتفكيكية. " جاء رجلاً " تعني (مانجا) في اللغة الإشارية الدالة في محيطه.

يا الله، قال يخاطبها، لم أكن أعتقد أننا سنلتقي. وحين فكرت في زيارة أهلك، لم أكن أعتقد أنك هنا. آخر مرة التقينا فيها معاً كانت في العام ١٩٨٧. كان زوجك معك. ما أخباره. وقص عليها عمّا مر به من تجارب مريرة. عن معاناته مع النساء، وتشرده في المدن، وضيق ذرعه بأهله ومعارفه. وكانت تصغي. كأنما تبادلا، الآن، الأدوار.

كانت تقص عليه، من قبل، ما يلم بها من إشكالات. كانت تقص عن أب تحترمه، ولكنها تختلف معه في رؤيته للحياة. كانت تقص عن أم تحبها، ولكنها لا تريد أن تكون مثلها سيدة بيت. كانت تقص عن إخوة تحبهم وتحترمهم، ولكنها تختلف عنهم فطموحها غير ما يطمحون إليه. والآن حدثته بارتياح عن بناتها. عن زوجها وأيامها. وأخفت أشياء عن ماضيها. أشياء لا تعيبها، ولكنها لا تريد إعلانها. وتريد منه ألا يأتي عليها.

بعد سنوات يلتقيان من جديد.

تنظر إلى ملامحه وما فعله الزمن به. تنظر إلى معالم وجهه. تذكره بشعره الغزير الكثيف الذي لم يبق منه إلا البقايا. يقول لها: كأن لقاءنا الأخير كان قبل يومين، أو قبل أسبوعين. ولم يعترض على كلامها. لم يكمل ما نقص من روايتها. وكان يلاحظ ابتسامتها وهي تروي و (.........).

وهو يحفظ بعض أسرارها. يتركها تروي روايتها، ويصغي إليها. و (...........). والأسرار ليست خطيرة. والأسرار عادية ولكن .... من يروي روايته كاملة؟

وبعد سنوات طويلة يصغي إلى روايتها. ينظر في عينيها. ينظر إلى أمها. ينظر إلى ابنتها، ويصغي إلى روايتها. وروايتها ليست. (...........).

درس في التلقي

حين انتهى من إلقاء محاضرته سار في الممر الذي يؤدي إلى مكتبه. وكانت الفتاة تتبعه. سارت أمامه ولم تتبع الطريق الذي يسلكه الطلبة. كان الجو حاراً فالصيف على الأبواب. وحين وصلت إلى المبرد أخذت تشرب الماء. لاحظ أنها لم تنقطع عن شرب الماء للحظات، وحين اقترب منها توقفت ورفعت رأسها، وانتصبت. وحين تلاقت نظراتهما قال لها: الجو حار ويبدو العطش شديداً. وسارا كل في طريق.

وفي المكتبة التي يزورها بين فينة وأخرى قال له الموظف قصة المعلم الذي يلاحق الطالبات. قال له إنه يبدو هادئاً ووديعاً، ولكنه ساهٍ. إنه يقول كلمات ويقصد معاني أبعد. وابتسم. قال له: لغتنا ومفرداتنا غالباً ما تكون حمالة أوجه. أنت تقول الكلمة، وإذا احتملت معنيين تردد عبارة الناس: بلا قافة. ولعل العبارة الأخيرة: بلا قافية، لعلها من الموروث الشعري، وفي الشعر تحتمل المفردة أحياناً معنيين. في الشعر تورية. ثمة معنى قريب غير مقصود ومعنى بعيد مقصود. فإذا ما ردد المرء عبارة: بلا قافة، فإنه يلجأ إلى التورية، وإذا لم يرددها فهو لا يقصد هذا، إلا إذا غمز ولمز. هنا تكمل الإشارة العبارة.

وهي، هي ذهبت مذاهب شتى. هي قالت الأستاذ ليس سهلا. إنه يغازل الطالبات ويذهب في كلامه مذهب أهل البلاغة. يبدو وديعا، ولكنه ساهٍ. وأشاعت هذا في المدينة. وفي المدينة أخذ الناس يتحدثون عن العبارة وما بعد العبارة.

وهو، هو احتار في أمر الفتاة والناس. وبخاصة حين أخذوا يلمحون له بإمكانية فصله من العمل. (للأمانة هو لم يصطحب فتاة إلى مطعم، يركن في زاوية حتى يغازلها ويمد يده، وللأمانة هو لم يتمادَ مع طالبة وعدته أنها ستمنح جسدها له، ولو بعد حين. وللأمانة هو لم يقف، وهو طالب، أيام الجامعة، وراء طوابير الطلبة ليضغط على مؤخرة طالبة. ربما تكون له أخطاؤه، وهو لا ينكر هذا، وهو يكرر: من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر. ولكن الذي فعل كل الأشياء السابقة يحاول أن ينكرها و ...).

قال: كيف سأشرح لأهل المدينة الأمر؟ كيف سأقول لهم إنني قلت الكلمة، وسواء أكنت أرمي إلى معنى بعيد أم لا، فإن من أشاع القصة هو الفتاة. وأنا، قال، قلت كلمتي ومشيت، مثلي مثل الكاتب الذي يكتب زاويته: قل كلمة وامش. أو قل كلمتك وامشِ. لا بد، إذن، من نظرية نقدية يستوعبها أهل المدينة.

وهو يشرح للطلاب نظرية التلقي، قال لعل أفضل مثال يمكن أن يساعدهم على فهمها هو الإتيان بمثال تجسيدي. المؤلف يقول شيئاً. يكتب نصاً. والقراء يفهمونه بطريقتهم، وهو غير مسؤول عن فهمهم / فالعلاقة بين النص والقارئ، لا بين المؤلف والنص. و ... وأليس عنوان الزاوية التالية مثالاً: قل كلمتك وامشِ. والمؤلف يخاطب القارئة وهي تشرب: هل أنت عطشى؟ وهو غير مسؤول عن المعنى البعيد، عن إساءة التفسير وهي تحلم. إنها مثل أم حسين.

دفتر الماضي

يتذكر أياما مضت. تعود به الذاكرة إلى خمسة وعشرين عاما خلت. تعود به إلى تلك الصباحات التي كانت أكثر إشراقاً من صباحاته هذه. ربما لأنه لم يبق منها سوى الذكرى. ربما لأنه كان شاباً قادراً على الاحتمال. ربما لأنه لم يكن أبا ولم يكن مسؤولا. ربما لأن تجاربه كانت أقل، وكانت همومه، من ثم، أقل. ربما، وربما لأن المستوطنات أيضاً كانت أقل، وربما لأن عمر الاحتلال كان أيضاً أقل. وربما لأنه كان يذرع فلسطين من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها دون أية مشكلة.

يتذكر تلك الروح المتمردة التي كانت تسكن جسده الآخذ، الآن، في النحول. يتذكر أصدقاء رائعين. يتذكر زملاء كانوا معا مثل عصبة عصي تأبى تكسرا، لأنها كانت مجتمعة، أما الآن فقد تفرقت آحادا.

يتذكر تلك الأيام. كانت الأحلام كبيرة. الوطن الذي كان في طريقه إلى الضياع، كانت الروح تسنده. لم تكن الروح قد انهزمت. ثمة منشور سري يوزعه على أصدقاء يترددون، ابتداء، في قبوله. وثمة تفاؤل. الثورة قوية، وهناك من يقول لا، وهناك عالمان. عالم يقف معه، وآخر يقف ضده. وثمة أغان يرددها: في الزمن القادم، حين يكون لنا بيت كالمعتاد. وثمة مقاطع شعرية لناظم حكمت: أجمل الأيام ما لم تأت بعد، أجمل الأطفال ما لم تولد بعد.

يتذكر تلك الطفلة التي لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها. يريد والدها أن يزوجها، فما جدوى التعليم لفتاة. ستحتل شهادتها، في النهاية، زاوية من زوايا المنزل، فالفتاة، في آخر الأمر، للمطبخ ولتربية الأولاد. يذهب والأصدقاء، إلى منزل والدها. يجلسون على حصير في بيت فقير.بيت ريفي من اللبن والقش. يشربون الشاي أحمر مثل لون دمهم. يبتسمون في وجه والد الطفلة، بعد أن بادلوه التحايا الحارة. كأنهم أسرة واحدة. كأنه أخوهم، والطالبة ابنتهم.ثمة ود متبادل، وثمة إصرار على غداء. غداء فقراء. لكن ثمة إصرار. بيض مقلي وخبز طابون وشرائح بندورة. ولا بد من مناقشة الأمر. لا بد إذن من الغداء، ولا بد من شرب الشاي.

يتذكر الماضي. خمسة أو ستة من المعلمين الشباب. ثمة معلم صموت لم يتكلم عن زواجه أو طلاقه لأصدقائه إطلاقا. خمس سنوات بينهم لا يعرفون عن قصته شيئا. وثمة معلم متحمس لعمله، مخلص فيه، نشيط يؤيد الخميني بلا تردد. يأتي من جنين، ويرزقه الله، بعد طول انتظار، بالإناث. وثمة من يخلص لتدريسه أكثر من إخلاصه لأي شيء آخر. وثمة صوت واحد: لا بد من أن تكمل تعليمها. شابة ذكية وتدرس بانتظام. لو كانت كسولة غبية لربما .... يقولون لأبيها.

يتذكر الماضي. يترك المدرسة، يذهب إلى الجامعة. يغادر إلى أوروبا ويجد نفسه فجأة أمام المشكلة من جديد. بعد خمسة وعشرين عاماً يجد نفسه أمام المشكلة من جديد، ولكنه الآن أمام ابنته. يصغي إلى الأصوات المختلفة تكرر العبارات إياها: ولكن مصير الفتاة الزواج. في النهاية ستجد نفسها في المطبخ. وهي تمد إليه قائمة بأسعار الساعات المعتمدة للطلبة الأجانب، للطلبة الوافدين، إلى القطر، إلى البلد، إلى ..... وستغدو، منذ دخول الجامعة، طالبة أجنبية، على الرغم من أنها عاشت في هذا الجزء من الوطن العربي ثلاثة عشر عاما، على الرغم من أنها درست في مدارسه.

وهو يريد أن يعلمها. يقول لها: تعالي وتعلمي في وطنك، وهي تريد أن تبقى حيث نشأت، والوطن الذي يدعوها إلى العودة إليه بقايا وطن. تماماً كما أنه هو بقايا إنسان.

يتذكر تلك الصباحات. كانت أكثر إشراقاً. يتذكر طالبة ذكية تريد أن تتعلم. وهو يريد أن يعلم ابنته ولكن يريدها أن تعود إلى وطنها. وهي تريد أن تبقى حيث نشأت. وهو يحار، وليست ثمة أمامه سوى الصمت.

عادات ريما

صباح مبكر. صباح كانوني والبرد يلسع. تصحو المدينة وإذا بشطرها الغربي منفصل عن شطرها الشرقي. ثمة دبابة وعربة مجنزرة، وثمة دوريات. الحركة في القسم الغربي عادية، وهي كذلك في القسم الشرقي، ولكن الجنود يعيقون الناس من التنقل. وثمة أصوات من هنا ومن هناك. والمثل الشعبي على الأفواه: "رجعت حليمة لعادتها القديمة "، وتكرره: رجعت ريما لعادتها القديمة. تنطقه كما ينطقه المسيحيون، فأعياد رأس السنة على الأبواب.

في الحافلة تصغي إلى راكب يقول: الإذاعة العبرية قالت إن الأمر لن يستغرق سوى ثلاثة أيام، وفي الحافلة يسأل الركاب عن الطرق السالكة. يسأل السائق زميله فيعطيه إشارة بالعودة. ويكلمه قائلاً: الطرق صعبة، والجنود اقتربوا من مناطق لم يقتربوا منها من قبل، قبل أشهر حين كان الحصار طويلاً. يعرف الجنود الأماكن التي كان الناس يتسللون منها سابقاً، ويرسلون دورياتهم التي تجوب الشارع، فيما الناس يضبطون إيقاعهم على إيقاع الجيب الإسرائيلي الذي يتشكل أيضاً من جنود دروز. وبعد قليل تتفتق المخيلة الجماهيرية عن أشياء جديدة. يكتشف الناس طريقاً في الجبل، مثل ذاك الذي وصفه تأبط شراً، الشاعر الجاهلي:

إن بالشعب الذي دون سلع   لقتيلا دمه مـــا يطل

خفف العبء عليّ وولّـــى   أنا بالعبء له مستقل

والناس، الذاهبون والعائدون، السائرون باتجاهين يريدون أن يصلوا إلى أماكن عملهم ليس أكثر، وليس ثمة من يريد الثأر، فمن يريد الثأر لا يسير في طرق مكشوفة واضحة. يصعدون الدرج. قبل أن تمطره الدوريات بوابل من قنابل الغاز المســيل للدموع، ويصغي المرء هناك، رغم كل ما يحدث إلى أصوات طالبات يضحكن. لو كان هناك (درابزين) لأمكن (التسحسل) على الدرج. ويواصلن السير. يصعدن الدرجات لمواصلة تعليمهن.

تبدأ إحداهن تعد الدرجات، ثم تعاود العدّ. ويبدأ الجنود بقذف قذائف الغاز المسيل للدموع. يبكي من يبكي، ويعطس من يعطس، ويتلفع من يضع الكوفية على رقبته بها. الدورية تشدد الحصار، والناس يواصلون رحلتهم، ولا بد من اكتشاف طرق جديدة. والطريق هذه المرة ليس سهلاً. شِعْبٌ في الجبل. شِعْبٌ لم يمهد بعد. الكبار لا يستطيعون السير فيه، وكذلك النسوة.

ويواصل بعض هؤلاء السير في الطريق القديم، غير آبهين لأصابع الجنود التي تكاد تضغط على الزناد.

لو كان هناك كاميرا. لو كان هناك صحافة. النسوة يسرن في الطرق الجبلية الوعرة. يترددْن، فالمخاطرة ليست هينة. لو زلت رجل إحداهن فقد يصيبها مكروه. والدوريات تشدد

الحصار، والناس لا يكلون ولا يملون. ربما تواصل عاداتها، والناس يواصلون عاداتهم. ثمة قطة وفأر. ثمة سيزيف فلسطين. ثمة آلهة تحكم عليه بأن يصعد إلى أعلى الجبل، لينزل ويصعد، ولا ملل. يدقون الماء في الهون. ويكتشف عاموز عوز، بعد خمسين عاماً، أنه كان بالإمكان ألا يحدث هذا. يكتب هذا في مقال يترجم إلى العربية.

يذهب الإسرائيليون لفترة، لعدة أيام، ثم يعودون. يصحو الناس كالعادة. يريدون الذهاب إلى أعمالهم ووظائفهم. ولكن المدينة تغدو مدينتين. ثمة حاجز. ثمة جسر لا بد من اجتيازه. مجرد دورية ودبابة ومجنزرة تعيق مائة ألف مواطن عن مواصلة حياتهم. يمكثون يومين ثم يغادرون في اليوم الثالث، ولكنهم يتركون آثاراً ما تقوم بالواجب على خير ما يرام. يضعون أكواماً من التراب، وتغدو حركة السيارات صعبة جداً. الجنود غير موجودين وموجودون، فمن يجرؤ على إزالة الحواجز. لا بد من إذن. ويتذكر المرء الشاعر عبد اللطيف عقل. كتب هذا مرة: إنهم يفرضون منع التجول من خلال سماعة الجامع. وها هم يبتكرون، الآن، شيئاً شبيها. أكوام من التراب، وربما تواصل عادتها.

ثمة مبرر لحقد ما

في الحافلة يتكلم. يقص عن ابنه الذي قضى قتلاً. يقص عن ابنه الذي يقيم في مركز للمعاقين في بيت لحم، ويلعن اليهود والأنظمة العربية.

في الحافلة يحاور الركاب، وقد تكون واحداً منهم. قد تجد نفسك مسوقاً في الكلام. قد لا تعرف قصته كلها. وقد تجد نفسك تقول كلاماً مغايراً لما يقول. قد لا تلعن اليهود كلهم، وقد تدافع عن قائد عربي مثل جمال عبد الناصر.

وفي الحافلة قد يحدث الاشتباك. قد تجد نفسك من الذين أصابتهم اللعنة. وقد تقول له: ولكني لست يهودياً، ولست حاكماً عربياً. ومع ذلك تجد نفسك من الملعونين.

وثمة حقد ما. ثمة قلب اكتوى مرتين، مرة بفقد فلذة كبد، ومرة بحسرة متكررة، وكلما استبد به الشوق إلى ابنه وأراد زيارته تذكر حالته التي لا تسر، وتذكر القتلة، وأنت، أنت إذا كنت ممن يدافعون عن ثمة اختلاف ما، ثمة هامش ما لحوار ما، ماذا تقول في الحافلة؟

ثمة مبرر لحقد ما.

ثمة مبرر لحقد ما.

ولا كلام.

****

على مقعد ما، في دكان ما، في يوم مشمس من أيام الشتاء، تجلس لتصغي إلى أحد معارفك. يتكلم عن أشعار يكتبها. تعود به الذكرى إلى الماضي. يحضر دفاتره القديمة ليقرأ بعض ما كان يكتب. تلعن اليوم الذي غدوت فيه ناقداً ينشر مقالاته ودراساته. كلما كتب أحدهم نصاً ما عليك أن تقرأه، وأن تبدي رأيك لصاحبه. وقد تقرأ كلاماً لا طائل من وراء قراءته.

على مقعد ما، في يوم مشمسٍ من أيام الشتاء، يمر شاب في السادسة والعشرين من عمره من أمامك. لا يطرح السلام، كأنما لا أحد في المكان. ويحدثك أبوه عن قصته، يلعن اليهود، ويعبر عن قلب مليء بالحسرات.

كان ذلك قبل ثمانية أعوام. كان ذاهباً ليقدم امتحان الثانوية العامة، وأمسك به الجنود، ضربه أحدهم بكعب مسدسه، ومنذ ذلك الزمن وهو فاقد الوعي. يتناول المهدئات باستمرار، وحين يثور يضرب أمّه فتصرخ مستنجدةً. أهدئه بكلام ما. أقول له إنها أمك، وأحياناً يخاطب ربه قائلاً: ماذا فعلت لك يا إلهي؟ ماذا فعلت لك؟

ويعبر أبوه عن حقد ما، حقد يكبر مع الأيام، يكبر كلما كبر ابنه الذي تزداد حالته

سوءاً. وأنت تدرك هذا. تدرك أن ثمة مبرراً لحقد ما. وتصمت. وتصمت، ولا كلام.

****

في صباح مبكر لا تصل إلى مكان عملك. المدينة محاصرة حصاراً شديداً. السواقون واقفون والسيارات مصطفة على الجانبين، وثمة شمس تسطع في كانون الثاني ولا مطر. المطر الذي شهدته المدينة كان مطراً أرضياً. مطر يصعد من الأرض إلى السماء. ثمة رصاص وثمة قتل وثمة خمسة عشر شهيداً في أسبوعين، وثمة أربعة شهداء في يوم واحد.

في صباح مبكر تعود من حيث أتيت. تذهب إلى الفوال تشتري الفول، ويبدأ حديث عابر. يحدث عن ابنين سجينين. يحدث عن شاب معاق غالباً ما تراه على كرسيه. والفوال يبيعك الفول، ويمارس حياته، يبتسم وهو يحدثك. يبتسم لأنه لا يعرف في حياته إلا الابتسام، ولا تدري ما الذي في القلب. وتحدثه عن الرجل الذي استشهد ابنه، الرجل الذي يمكث ابنه في مشفى للمعاقين، وعن الرجل الذي يرى ابنه فاقد الوعي دائماً، تحدثه عن حسين الذي يسير وحيداً في الشارع يدخن سيجارته ولا يحدث أحد منذ الانتفاضة الأولى حيث أهوى الجنود بالعصى على رأسه وحولوه إلى معاق. ثمة مبرر لحقد ما. ولا كلام.

٢٠٠٤/١/٤

البكاء على الأطلال

ستقودني قدماي إلى المخيم الذي ولدت فيه، المخيم الذي أنفقت فيه من عمري أربعة وعشرين عاما. ستقودني قدماي إلى مركز الشباب لأقدم التعازي إلى عائلة الشهيد. ستقودني قدماي إلى هذا المكان مراراً منذ أربعين شهراً. وسوف أقدم العزاء لمن أعرفهم ولمن لم أعد أعرفهم، لأقربائي ولغير أقربائي، ولسوف ألتقي بأصدقاء قدامى. سأقف معهم ساعة ساعتين، وسوف أزور معهم بعض أحياء من المخيم. سأزور المناطق التي كنت أزورها، وسأزورها الآن لمناسبة حزينة، لأرى المنزل الذي هدموه، المنزل الذي فجر أحد سكانه نفسه قبل يوم في مستوطنة إسرائيلية، ما أدى إلى موتى وقتلى، والناس، هنا، في المخيم موتى وقتلى. والناس هنا شهداء (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً)، وهؤلاء قتلوا يوم خرجوا من وطنهم.

ستقودني قدماي إلى شوارع ضيقة، إلى أزقة كأني لم أذرعها مراراً. سأرى بيوتاً متلاصقة. سأرى بيوتاً متلاصقة. سأرى طوابق ما عادت الشمس تنفذ إليها، طوابق أرضية علاها طابق أول وطابق ثان، وغدت الطوابق الأرضية سراديب أو ما أشبه. سأرى نفسي غريباً في المكان، كأني لا أعرفه، كأني أزوره للمرة الأولى. ومثلما أسير في مقبرة قديمة، حيث القبر إلى جانب القبر، وحيث يجدر أن أسير بحذر حتى لا تطأ قدماي قبراً ما، يجدر أن أسير في أزقة المخيم. أسير وراء صديقي، وصديق آخر يسير ورائي، فالزقاق لا يتسع لاثنين يسيران جنباً إلى جنب.

سأبصر المنزل الذي هدموه، سأبصر المنازل المحيطة به. سأهمس لصديق ما: هل سيخسر أصحابه شيئاً ما؟ ربما أفرجها الله عليهم. ربما يقيمون الآن في منزل أفضل. ربما يعمرونه من جديد، ويصلحون الخلل الذي اعتراه حين بنوه سابقاً. ولا أبصر الساحات. لا أبصر الفضاء الواسع الذي كان، الفسحة التي كانت تفصل بين منزل ومنزل، وبين حارة وحارة. لا أبصر أطفالاً يقيمون ملعب كرة طائرة. أربعة وعشرون عاماً مرت على تركي المكان. وثمة طابق أول لم يكن، وثمة طابق ثان لم يكن، وثمة توسع أفقي أعدم الساحات.

سأزور المخيم بعد فترة. سأزوره في عيد الفطر السعيد، لأصل الرحم، وسأرى من جديد الكتل الإسمنتية، البنايات المتلاصقة، سأرى الأطفال في الشوارع هاربين من البيوت، سأراهم زرافات ووحدانا. وسوف أسأل بعض الناس كيف يحضرون أكياس السكر والطحين والرز إلى منازلهم، وسوف أعرف أن استخدام العربة غير وارد، ولا بدّ من ظهر قوي، لا بدّ من سؤال الله: اللهم لا أسألك عبئاً هينا، اللهم أسألك ظهراً قويا. وأينما يممت وجهي أبصر جدران عارية لا يسر منظرها الناظرين. كتل إسمنتية، وشوارع بائسة ضيقة وبنايات ذات

نتوءات لا نظام ولا ترتيب فيها.

سأغادر منزل أقاربي. سأبصر فجأة شجرة تين وشجرة أخرى. سأفرح قليلاً، فثمة في المكان بعض أشجار، وسأعود بمخيلتي إلى الوراء. إلى ثلاثين عاماً خلت، يوم لم يكن مخيم واحد يخلو من عشرات الأشجار، يوم لم يكن منزل واحد يخلو من ثلاث أو أربع أشجار. أشجار الحمضيات، وأشجار الكينا، وأشجار السرو، وأشجار التوت والتين، عدا الدوالي والنبات والورود. عدا الياسمين والمديدة والليف. سأفرح لرؤية شجرتين في هذا العالم الإسمنتي العجيب. هذا العالم الذي يفتقد إلى التناسق، هذا العالم المكتظ بالمباني والبشر.

وسأزور، مساءً، بيت عمي. سأرى كتلاً إسمنتية، طوابق يركب بعضها بعضا. سأتذكر صورته الأولى: بيت أرضي يتكون من ثلاث غرف وحديقة واسعة، وشجرة توت وأكثر من دالية، ومساحة خلف الغرف كانت ملعب كرة طائرة لأبناء الحارة. وأمّا الآن.

سأزور بيت عمي. سأجلس في المنزل قليلاً من الوقت، ثم أغادر فالمكان ....

٢٠٠٤/١/٤

أَنَّى سريت ؟

في المنام رأيتها، وحين صحوت لعنت حظي العاثر: لماذا صحوت؟

المدينة تغرق في مأساتها، ونشرات الأخبار لا تقول عنها إلا ما تعيشه، وما تعيشه لا يسر ساكنيها ولا يسر محبيها، وليس ثمة في الشوارع إلا ما يسيء الناظرين. أكوام ترابية تفصل بين شطري المدينة، وجنود يغص المكان بهم، ومراسل تلفازي ليس بعيداً عن الدبابة التي يحرك جنودها مدفعها كأنهم يريدون قتل الشاهد على ما يقومون به، وسكان المدينة في بيوتهم، قد يطل بعضهم من النوافذ، وأنا، أنا الذي يتسلل إلى مكان عمله كما يتسلل بعض الناس، أقبع في بيتي منذ الظهيرة، ومنذ الظهيرة أمارس حياتي المنزلية. أكتب قليلاً، وأتابع نشرات الأخبار كثيراً. وحين يستبد بي الضجر أبحث عن فضائية تبث أغاني أو مسلسلات أو برامج غير إخبارية، أبحث عن فضائية ينطق مذيعها بلغة أخرى علني أحافظ على ما تبقى من تلك اللغة التي أنفقت سنوات في تعلمها حتى لا أنسى.

والليل الشتائي الطويل يدفعني إلى الذهاب إلى النوم مبكراً تقريباً، فما إن تقترب الساعة العاشرة حتى أجد نفسي ألملم نفسي، حتى أجد الضجر من الكتب والتلفاز ومن النظر إلى السماء، حتى أجده يدفعني إلى الفراش دفعا.

وفي المنام، في بداية العام الجديد، رأيتها، وحين صحوت لعنت حظي العاثر: لماذا صحوت؟

المرأة التي زارتني من قبل، المرأة التي رأيت في نظراتها عرض إمكانية حياة مشتركة زارتني ليلاً. زارتني على الرغم من كل الذي شاهدته في النهار، وكل ما شاهدته في النهار كان محزناً. جنود الاحتلال، إطارات محترقة، شوارع تقول إن الحياة غير طبيعية، وبشر يعدون على الأصابع، يهرولون هاربين من الجنود، وسيارات لا تواصل سيرها الطبيعي يتحدث سائقوها عن العمل في ظروف الحرب، يبررون رفع الأجرة التي يحصلونها من الركاب. وركاب يتحدثون عن قلة النقود كأنما يقولون للسائقين: لا تستغلوا.

في المنام رأيتها، رأيتها بهية ودودة، ومنذ زمن لم أكن أرى في كثيرات إلا مخبرات. رأيتها قادمة، كأنما هي قادمة من عالم آخر لا يحاسب المرء على الكلمات والنظرات، مجتمع فيه حرية سلوك ولا يخضع للعادات والتقاليد التي تحد من اللقاء المشترك بين الرجل والمرأة رأيتها كما خلقها الله تقودني إلى مكان ما، ورأيتني أسير وراءها، نسير معاً متحررين من القيود والضوابط والمحرم والمحلل، وفجأة صحوت. وحين صحوت قلت غاضباً: لماذا صحوت؟

ومثل قيس بن الخطيم، وجدتني أقول كلاماً، كلاماً مشابهاً لما قاله في الطيف، وكررت معه:

أَنَّى سريت وكنت غير سروب ... وتقرب الأحلام غير قريـــــب

ما تمنعـــــي يقظي فقد تؤتينه ... في النوم غير مصرد محسوب

ولم أكمل البيت الثالث، البيت الذي يقول:

كان المنى بلقائها فلقيتها ... ولهوت من لهو امريء مكذوب

ومع أنها رأتني فحلاً، إلا أن اللقاء لم يكتمل لألهو ولأعبث. ولم ألهُ، ولهذا اكتفيت بالبيتين الأولين أكررهما. وتذكرتها تلك المرأة التي سربت ذات نهار، فهي لم تكن تسري وحسب، كانت تسرب، وكما في الحلم زارتني، زارتني في النهار.

في المنام رأيتها، وحين صحوت لعنت حظي العاثر: لماذا صحوت. وقلت: على الرغم من كل ما يجري فثمة أشياء في هذا العالم جميلة، حتى في الأحلام. ولم أذهب إلى النوم ثانية. عدت إلى نشرات الأخبار، أتابع ما يجري. كانت المدينة، في الصور التي بثها التلفاز، خالية مهجورة إلا من دبابات وجنود. وصرخت: لماذا صحوت؟

صباح ٥/١/٢٠٠٤

الأشياء تأتي متأخرة

" كان ذلك مختلفاً
صباي كان وقتئذ
في ريعانه
وأنتِ " (سافو، شاعرة قديمة).

سيراها تأتيه في الليل. سيراها ترتدي جلباباً أسودَ طويلا، سيراها تضع على رأسها شالاً يميل إلى البياض.سيراها تدخل إلى شقته تجلس معه.

من قبلُ، رآها أيضاً.رآها أفعى سوداء اللون، أفعى نحيلة. ورأى، هناك، في منزلها، رأى أفعى سوداء أخرى، أفعى معمرة، ممتلئة، رآها في سقف بيت منزلها الذي لم يكن من خشب، رآها في سقف بيتها وقد بدا مصنوعاً من الخشب. [يتذكر في الصحو، يتذكر ما قصه عليه أحد تلامذته حين كان يدرس في الريف. يتذكر كلام تلميذه: أنام في الكوخ، وفي الكوخ أفعى تقبع في السقف. ويسأل تلميذه: ألا تخاف؟ ويجيبه: لا أخاف].

يتذكر آخر مرة رآها، قبل أن يراها في المنام. ولا يذكر التاريخ. ربما كان ذلك قبل عام. ربما أقل قليلاً، ربما أكثر كثيراً. ويتذكر لقاءات عابرة تتم دونما اتفاق مسبق على موعد. ربما يكون الحديث عابراً. ربما يكون حديثاً عن الصحة أو عن مكان العمل. ربما يسألان عن العائلة، وقد تصدر عنهما عبارات تعبر عن ضجر ما من هذه الحياة، ضجر من الحياة في مدن صغيرة أشبه بالقرى، مدن محتلة، مدن محافظة، مدن تشيع أخبار سكانها وتتداول كتداول العملة بين أيدي البشر حين يبيعون ويشترون. قد تبدي سلوكاً ما، قد تعبر خفية عن إعجاب ما، عن رغبة في تواصل ما.

يتذكر أنه لا يفصح عن مشاعره. أنه لم يعد يرغب في مواصلة علاقة ما. ربما يشتهي امرأة، ربما يحتاج إلى امرأة، ربما يريد الخروج من عزلة فرضها على نفسه منذ زمن.

ويفترقان.

يفترقان زمناً طويلاً. لا هو يراها ولا هي تراه، ولا يسأل عن أخبارها إنْ تحدث الآخرون عنها في حضوره. ملاعين هؤلاء يذكرون أخبارها أمامه حتى يلاحظوا ردّ فعله. حتى يعرفوا إن كان يفكر فيها. يفعلون هذا ليبدوا رأيه في موقفه منها. هل حقاً يفكر فيها؟ أم أنه لا يسأل عنها؟ يريدون أيضاً أن يتأكدوا مما تشيعه من أنه يجري وراءها. [يتكرر هذا السلوك أيضاً من كثيرين، من آخرين يعتقدون أنه يفكر في علاقة ما مع فتاة تخصهم].

يغدو أسير وظيفته. يغدو بطل رواية لا يبحث عن امرأة ما قدر ما يبحث عن درجة أخرى في سلم الوظيفة. يقول أحياناً ربما أغدو مثل بطل رواية نجيب محفوظ " حضرة المحترم ". ربما أجد نفسي على أبواب الستين وقد حصلت على الدرجات كلها، وسأنظر إلى نفسي في المرآة لأجد شعري أبيض أشيب، ولأرى تجاعيد الوجه وفعل الزمان ". هل سيفكر رجل في الستين في امرأة؟ يسأل نفسه.

وتغدو أسيرة وظيفتها. امرأة عاملة أنهت دراستها. تذهب مبكراً إلى العمل. تذهب بسيارتها التي اشترتها بالتقسيط المريح. وتسدد ثمن السيارة. تسدد الأقساط قسطاً قسطاً. تصحو مبكراً، وتعود في وقت متأخر، وتنتظر راتبها الشهري. امرأة عاملة، لها عالمها المستقل. امرأة مثل أي رجل. امرأة تملك حريتها، وما عادت تقبل أن تكون حذاءً في رِجْلِ رَجُلٍ. ولماذا لا يكون هو أيضاً حذاءً في رجلها. ولّى ذلك الزمان الذي كان الناس يكررون فيه المثل: المرأة مثل الكندرة، ويخاطبون فيه الرجل الذي لا تطيعه زوجته: اشلح كندرة والبس كندرة، حتى تريحك الكندرة. فالمرأة يمكن أيضاً أن تشلح كندرة وأن تلبس كندرة، حتى تعثر على كندرة تريح رِجْلها، تريح قدمها.

والمدينة تكبر. المدينة التي كانت محتلة غَدَتْ نصف محتلة. خرج الجنود من شوارعها، وحل محلهم رجال الشرطة العرب. تحررت المدينة جزئياً. وتوفرت فيها فرص عمل. البنوك افتتحت أفرعاً جديدة لها، أو أعادت افتتاح الفروع التي أغلقت عام ١٩٦٧. والشركات تنتشر في وسط المدينة وفي أحيائها الشرقية والغربية. المكاتب تكثر، والمكاتب تحتاج إلى سكرتيرات، ويفضل أن يكن جميلات أنيقات. [يتذكر شابة عرفها. يتذكر لقاءه معها على دوار المدينة. كان عرفها من قبل، كانت تحدثه عن المدينة وما يجري فيها، شابة من المدينة تعرف خباياها وما يجري فيها، ولها لسان ثرثار، شابة، مثل نساء كثيرات في المدينة، يسعدهن الحديث عن الفضائح، ويسعدهن أكثر أن يعرفن الأسرار. وربما يكن هن لا يختلفن في سلوكهن عمن يتحدثن عنهن. يتذكر شابة ويتذكر أيضاً أنها .... ولا ضرورة. تحدثه الشابة عن الشابات. تذكر له اسماً واسما آخر. تتحدث عن رواتب مغرية وتغمز. تتحدث عن تقديم الكاس وما أدراك. يتذكر شابة عرفها قصّت عليه عن الزمن الجديد. عن المكاتب والأجور وما بعد ذلك].

وثمة أيام تمر. ثمة قلب يشيب. وثمة زيادة وثمة نقصان. يمارس أيامه دون بهجة ما. يصحو مبكراً. في الصيف تطربه زقازيق العصافير على الشجرة القريبة. وفي الصيف، في الصباح يتنفس هواء الحياة. يذهب إلى وظيفته ويمارس حياته. قد يصغي إلى نشرة أخبار. قد يقرأ جريدة ما. قد يتابع مسلسلاً ما. وفي الشتاء ليس سوى ليل طويل. ليس سوى منزل ينفق

فيه الساعات الطويلات. وحين يلتقيان تحدثه عن عملها وتسديد أقساط سيارتها. عن الأشهر التي تمر والأقساط التي تقل وراتب الشهر الذي ازداد، عن قسيمة الراتب. تذكر له أرقاماً تبدو له لا تتناسب ومؤهلاتها. أرقاماً تتناسب ومؤهلات أعلى، ولا يعقب. ربما الشركة تربح وتربح. ربما القطاع الخاص يكسب أكثر مما ينبغي، ولهذا يدفع ويدفع. ويلتفت إلى شباب يذوي. إلى نضارة كانت. نضارة تتلاشى. ربما لم تفكر بهذا. ربما تفكر بتسديد الأقساط.

وستأتي الانتفاضة. هل كان أي منهما يتوقع مجيئها. تحاصر الضفة أولاً، وتجتاح المدن، فيما بعد، وتحاصر، وتغدو كل مدينة دولة مستقلة، ولا بد من اجتياز الحدود، عندما يسافر المرء من مدينة إلى أخرى.

سترى راتبها يتضاءل رويداً رويداً. سترى أن عليها أن تسدد الأقساط في موعدها الشهري. وستلاحظ أن الشركة ما عادت تدفع راتبها شهرياً. تغدو الشركة تعدّ أيام الحضور وأيام الغياب. وتدفع أيام العمل. وستجد نفسها أمام عمل غير مجدٍ، فهي ربما تداوم يوماً في الأسبوع. ربما تداوم يومين، وستجد نفسها أسيرة المنزل من جديد، وما زالت هناك أقساط كثيرة عليها أن تسددها والبنوك تتعامل مع الأرقام.

هل التفتت، وهي تجلس في المنزل، والأيام تدبر بعد أن أقبلت، هل التفتت إلى شبابها؟ هل أخذت تمعن في النظر في المرآة؟ وهل رأت آثار الزمن على ملامح جسدها؟

ويلتقيان.

ثمة كلام ما. ثمة نظرات ما. ويختلف الكلام عما كان. يبدو كلاماً مغايراً. ثمة حديث عن رحيل عن البلاد. تنظر إليه وينظر إليها ولا كلام. لا يقول كلاماً ما يعبر عن رغبة في تواصل ما. يفهم الأشياء، يقرأ أحياناً معنى الصمت، ويتظاهر بأنه لا يفهم، ولا يحس ولا يشعر. كأنه بليد الإحساس. كأنه ليس رجلاً. كأنه من طين آخر جُبِلَ ؟! [يتكرر هذا مع غيرها من الفتيات اللاتي عرفهن. منهن من حدث معها ما حدث معها. منهن من كانت تشعر بالكبر، من كانت تشعر بالوحدة. منهن من كان لا يلتقي معهن. من كن يحاورنه من خلال أخريات. ثمة رغبة في تواصل ما معه].

يتذكر أنه كان على الاستعداد لأن يقيم علاقة ما مع واحدة منهن. يتذكر أنّ ثمة حواراً مباشراً أو غير مباشر جرى بينه وبينهن. يتذكر المثل الشعبي: خطبوها تعززت. وثمة عروض كثيرة. عروض مغرية. عدّة مقابل عدّة. ولا يأبه لأي من العروض، ولأي منهن. هل انقلب المثل السابق؟ خطبوه تعزز. لكأنه سادي. لكأنه يتلذذ بتعذيبهن.

[حين قرأ مجموعة محمود شقير القصصية " مرور خاطف " توقف أمام القصة التالية

مطولاً:

فرص:

بنات الحي كلهن تقريباً رفضنه، لأنه أطول مما ينبغي، وأكثر نحافة مما ينبغي.

انزوى في بيته البائس خمس سنوات.

ظل خلالها يقرأ التعاويذ والأدعية، ويمارس طقوساً استقاها من كتب وجدها في مكتبة جده الذي مات.

خرج إلى الحي كائناً جديداً.

وبنات الحي كلهن تقريباً رفضنه، لأنـــه أقصـــر مـــما ينبغي، وأكثر بدانة مما ينبغي.

انزوى في بيته هذه المرة عشر سنوات.

خرج إلى الحي كائناً مختلفاً.

يذكر محياه الوسيم بأبطال الحكايات، وتوحي عضلات صدره وذراعيه، وانسجام قده من رأسه حتى قدميه، بأنه واحد من نجوم السينما المشهورين هذه الأيام.

بنات الحي كلهن تقريباً تهافتن عليه، كل واحدة منهن تتمناه في السر وفي العلن زوجاً أو عشيقاً، فلم يرقن له، لأنه وجدهن عوانس مترهلات.

انطلق في أرجاء الدنيا وحيداً، يبحث عن امرأة على هواه. وبنات الحي ما زلن جالسات على قارعة الطريق، في انتظار فارس أحلامهن الذي غاب].

في المنام يراها. يراها تأتيه. ترتدي جلباباً أسود. يراها نحيفة، تضع على رأسها شالا أبيض اللون، وتأتيه تأتيه كما أتته ذات نهار في اليقظة. أتته ترتدي جلباباً اسود طويلاً، ولم تكن ترتدي شيئاً آخر. لم تضع شالاً على رأسها. كان شعرها أسودَ طويلاً. قال لها: اجلسي. قالت له: إنني على عجل. طلبت ما طلبت منه إنجازه، ولم تشرب قهوتها. [يتذكر أنه كان في بلاد غريبة. يتذكر أنه كان يدعو فتيات لزيارته، ليشربن القهوة، يتذكر أنهن كن يشربنها ويمكثن طويلاً. ويطلبن أن ينفقن الليل كله معه. ويتذكر أيضاً أن من كن مرسلات له كن يرفضن شرب العصير أو القهوة. كنّ ربما يخفن ...].

والآن، في المنام يراها. [وأحياناً يراهن واحدة واحدة]. يراها تأتيه ليلاً، ويتذكر، حين يراها، يتذكر أجمل ما قالته العرب في موضوع الطيف، يتذكر بيتي قيس بن الخطيم:

أني سريت، وكنت غير سروب   وتقرب الأحلام غير قريـــــب

ما تمنعي يقظـــــي ، فقد تؤتينه   في النوم، غير مصرد محسوب

ولكنها، ليست مثل تلك التي جاءته في المنام فقط، ولكنها أتته أيضاً في النهار، وكما سَرَبَتْ سَرَتْ، كما جاءت نهاراً جاءت ليلاً، سوداء نحيفة.

وهو الآن غير الذي كان.

ثمة كهولة ما، وثمة شباب ولّى.

ثمة شعر أشيب يزداد تساقطه كل صباح، وثمة قلب ما عاد يخفق للأنثى، كما كان يخفق من قبلُ.

سَيُقِرُّ بأنه ليس سادياً. وسيردد عبارة واحدة:

الأشياء، كما أشتهيها، تأتي متأخرة.

الأشياء تأتي متأخرة. هذا كل ما في الأمر.

الجمعة ٢٠٠٤/٤/١٦